صديق الفلاح

كتب السر ولتر ميتشل المعروف في هذا القطر مقالة مسهبة في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية تحت هذا العنوان قال فيها ما خلاصتهُ

ما زال الفلاح المصري الصبور يحرث تربة مصر الزكية من عهد الفراعنة الذين عاثوا في الارض فساداً الى يومنا هذا وهو مسلّمٌ للقدر متناسٍ ما فات من الرزايا والكوارث شاكر ليد العناية الصمدانية ما اولتهُ من نعم المياه النيلية والرياح الشمالية (البحرية) . وكيف لا يترطب لسانهُ بذكر فضل النيل عليهِ وهو ابو مصر ومديم الخير لها ينساب انساب الافعوان في فيافيها وصحاريها الجدبة فيصيرها بقاعاً نضرة وبلاداً طيبة يخرج نباتها باذن ربها كما قال فيهِ الشاعر

يتمشى في قفرِ مصرَ اختيالاً مثلَ فكرٍ يجول في الاحلامِ

وليس شكرهُ للنيل باقل من شكرهِ للرياح الشمالية فانها تبرّد أنفاس الصحراء الحارة وتصيّر الملاحة ممكنة. وقد تقلبت الايام والاعوام عليهِ وتداولتهُ ايدي الولاة العتاة ورجالهُ تارة تخوضان الماء وطوراً تطآن الغبراء وأحني رأسهُ منذ القدم مستسلماً لولاة ليسوا منهُ ولا هو منهم بلا عاطفة خوف تتردد في صدرهِ ولا بارقة امل تلوح بين جنبيهِ . وما فتئت هذه حال صديق الفلاح الى عهد قريب حين تولت شؤونهُ حكومة تهتم بخيرهِ وترقية مصالحهِ وحفظ حقوقهِ ووقايتهِ من الظلم وتمكينهِ من ثروة البلاد . وقد عرف بمحافظتهِ على تقاليدهِ وابقاء القديم منها على قدمهِ حتى انك لتراهُ يحرث ويحصد بالادوات التي كان اسلافهُ يستعملونها في عهد فرعون ويوسف . وتراهُ واحداً في حالتي العسر واليسر . واظهر صفاتهِ الصبر واحترام القانون والميل الى العمل ودماثة الخلق وقوة البنية والاشتباه في مقاصد ولاة اموره وحب الهزل والمزاح وقد ينزع احياناً الى الخصومة وخصومتهُ قصيرة الزمن قلما تنتهي بضرب الاكف ولكنهُ يكثر فيها من اشارات التهديد والوعيد

ومن صفاتهِ عدم مبالاتهِ بالوقت . فاذا رام السفر في سكة الحديد لم يسأل عن مواعيد القطارات بل قصد المحطة وافترش الارض ينتظر سفر القطار ولا يبدي اقلّ قلق او اضطراب مهما طال عليهِ المطال. فان عندهُ مثلاً يقول " ان العجلة من الشيطان والصبر مفتاح الفرج " ومحافظتهُ على عاداتهِ وتصوراتهِ وتقاليدهِ القديمة سبب ما يرى من قلة الابتكار في اعمالهِ . وهو قليل الثقة بالمبادىء الحديثة فلا يصدّق مثلاً ان في " الحرّية والمساواة والاخاء " التي

ينادي بها ابناء هذا الزمان اثرًا من الفلسفة العملية بل يرى ان الاستعباد رأس النواميس الطبيعية وان الطبيعة لم تخلق شبثين متساويين . وهو على جانب عظيم من التوكل والثقة بالخالق بعيد عن الكفر والالحاد ولعلَّ السبب في ذلك مواصلتهُ للطبيعة كلَّ يوم فان الذين يرون الطبيعة و يطلعون على اعمالها العجيبة لا محلَّ في نفوسهم للشك والالحاد . وما من رجل يحرث الارض ويزرعها يشك في مبدإ قيامة الاموات " لان الذي تزرعهُ لا يحيا مالم يمت " ولا يبعد ان يكون اطلاعهُ على عجائب الخليقة سببًا لعدم تعجبهِ من اعمال البشر وان يكون تذكرهُ التقاليد القديمة التي تروي عجائب الاقدمين وغرائبهم سببًا لحسبانهِ عجائب هذه الايام امورًا عادية منتظرة لا تستحق الدهشة والاستغراب مثل ترعة السويس وخزان اسوان . فهو لا يتعجب من ترعة السويس لان سسوتريس كان اول من فكر في الجمع بين البحرين على ما في الاخبار القديمة . ولا يتعجب بخزاني اسوان واسيوط لان الاقدمين كانوا يخزنون المياه في الاراضي المنخفضة الواقعة في الجنوب الغربي من الفيوم منذ اربعين قرنًا ولا تزال الترعة الواصلة ما بين النيل وبحيرة قارون تسمى بالبحر اليوسفي الى الآن نسبة الى يوسف بن يعقوب

ولقد خبرت الفلاح منذ سنة ١٨٧٤ . وفي سنة ١٠٩١ كتبت أصف ما فعلتهُ الادارة الانكليزية لمصر فقلت " ان النظام والنزاهة والاصلاح حلَّت محلَّ السخرة والرشوة والكرباج التي كانت سائدة في عهد اسمعيل والثورة والنهب والخراب التي سادت في زمن عرابي " وليس قصدي الآن ان ابحث في مظالم الفلاح الماضية بل ان اضف ما عليهِ فلاح هذه الايام من اليسر والفلاح بالنسبة الى الماضي . ويكفينا ان نذكر في هذا الصدد انهُ بات آمنًا غارات المرابين الاجانب وجباة الوسوم والضرائب ولم يعد عرضة للقبض عليهِ وارسالهِ للخدمة العسكرية في السودان او لاعمال السخرة المنهكة وانهُ يُحكَم بالقسط والعدل وينال حظًّا كافيًا من ماء الريّ وان نوازل الغرق والشرق باتت في خبر كان

ومعظم الفلاحين اليوم من صغار المالكين فيعملون في اطيان جيرانهم او يستخدمون نظارًا على اطيان كبار المالكين ولكنهم يجنون من ارضهم ما يكفي لبعض معيشتهم . فان كانت مواردهم قليلة فان حاجاتهم اقلُّ وما داموا متمتعين بنور الشمس والهواء النقي ونائلين الكفاف من الرزق وبعيدين عن برد الشتاء وقرّهِ فانهم راضون قانعون

ثم وصف اكواخ الفلاحين وما هي عليهِ من الحقارة وابان المنافع التي يجنونها من النخيل فقال انهم يقتاتون بثمرهِ اشهرًا كثيرًا ويسحقون نواهُ فيطعمونها جمالهم ويستعملون جذوعهُ في بناء بيوتهم ويصنعون من لحائهِ حبالاً لسفنهم وقواربهم ومن خوصهِ مقاطف ومراوح .

وأطال في وصف الاباعد والمنازل والمآكل والمشارب والملاهي ومدح الفلاح المصري على تدينهِ وتسليمهِ امرهُ لخالقهِ

الطبيعة اكبر استاذ

لقد غلب على الناس ان يطلقوا لفظ الطبيعة على جميع الموجودات المادية من كوائن الارض والسماء سواء كانت اعيان البسائط والمركبات كالحيوان والجماد والنبات وعناصر الهواء والماء او مظاهرها المختلفة وصورها المديدة كالجبال والوهاد والرياض والغياض والبحار والانهار او ظواهرها الجوية كالندى والبخار والثلج والامطار والشفق والسحاب وقواتها العامة كالنور والحرارة والكهربائية الى ما يطول ذكرهُ ويلحق بهِ من الاصول والفروع والفصول والابواب

وقد توسعوا في اطلاق الطبيعة ايضاً على شرائع الكوان المادي مما استقريت اجناسهُ وانواعهُ وميزت صنوفهُ فجُمعت مسائلهُ طوائف استقلت ابحاثها وتعينت حدودها فأدرج كل منها في فن مخصوص او علم قائم بنفسهِ على ما هو مشهور يجمعها قولك العلم الطبيعي والطبيعيات

غير ان للطبيعة عند المحققين معنى اشمل واكمل يريدون بهِ ان الطبيعة هي مجموع حقائق الوجود من اعيان وصور ومحسوس ومعقول وجوهر وعرض فتشمل النواميس المادية والشرائع الادبية فقالوا ان الطبيعة بهذا المعنى هي مربي الانسان الاوحد ومرقاة كماله على الاطلاق . فهي منهُ الام الرؤوم والمرشد الخبير والاستاذ الاكبر والمهذب الحكيم حتى اذا حرم المربي ربتهُ او عدم المؤدب أدبتهُ

ولما كان ما تلقي الينا الطبيعة من دروسها بلسان شرائعها ووقائعها منحصراً في دائرتي التأديب والتهذيب اقتصرنا هذه المرة على بيان طرف من القسم الاول نريد بهِ تأديب الطبيعة وعقابها متبعين في ادراج شواهده الحسية والمعنوية معنى الطبيعة الاخير الشامل لكليهما معاً على ما اسلفناهُ مستندين في اساس كلامنا على اقوال من رجال الفلسفة والعلم مما يجدر بالتأمل والاعتبار ولا سيما ما يجل شأنهُ لدى المهذبين والوالدين القائمين بالتخصيص على تربية الصغار

قال العلامة الاستاذ وليم جمس مؤلف كتاب (السيكولوجيا) الكبير بعد تفصيل علمي طويل في شرائع نشوء العادة وتأثيرها في الطباع والاخلاق من الوجه الطبيعي ما نصهُ

"لا جرم ان جهنم ذات الوقود التي يُنذر بها شرارُ الناس في المعاد والخلود ليست باشد